مقدمة

نُفرط فى أيامنا هذه، فى الحديث عن الله، بيد أن معظم ما نقوله يتسم بالسطحية والتبسيط. نعتقد، فى مجتمعنا الديمقراطى، أن مفهوم الرب يجب أن يكون سهلاً، وأن يكون الدين متاحا للجميع. كثيرا ما يقول لى القراء، على سبيل العتاب، إن كتابى هذا أو ذاك صعب. وأريد أن أجيب «إنه عن الله». لكن الكثيرون يجدون إجابتى محيرة. فمن المؤكد أن الجميع يعلمون من هو الله: الكائن الأعظم الذى خلق العالم وكل شىء فيه. تظهر عليهم الحيرة حين نبين أنه من غير الدقة أن نسمى «الله» الكائن الأعظم لأن الله ليس كائنا على الإطلاق، وأننا لا نعرف ما نعنيه حينما نقول إنه «خيِّر»، «حكيم» أو «ذكى».

يعلم المؤمنون، نظرياً، أن الله كُلِّيّ التسامى، لكنهم رغم ذلك يَبدون وأنهم يفترضون، بدهياً، أنهم يعرفون من «هو»، وما «يفكر فيه» وما يحبه ويتوقعه. نميل إلى تدجين «آخرية» الله. نسأل الله دائماً أن يبارك أمتنا، ويحمى ملكتنا، ويشفى أمراضنا، ويمنحنا طقسا جميلا يوم رحلتنا. نذكِّر الله بأنه خلق العالم وبأننا خطاءون تعساء، وكأنما قد نسى هو ذلك. يستشهد السياسيون بالله لتبرير سياساتهم، ويستخدم المدرسون اسمه للحفاظ على النظام بالفصول، والإرهابيون لارتكاب بشاعاتهم باسمه. نتوسل إلى الله أن يدعم جانبنا فى الانتخابات أو الحرب، حتى على الرغم من أنه من المفترض أن أعداءنا هم أيضاً أطفال الله وموضوع حبه ورعايته.

وعلى الرغم من أننا نعيش فى عالم قد تغير تماما، ونتبنى نظرة إلى العالم

مختلفة كلية، فثمة نزوع للافتراض أن أسلوب البشر للتفكير فى الله ظل على الدوام كما هو اليوم دونما أى تغيير. لكن وعلى الرغم من ذكائنا التكنولوجى والعلمى المذهل، نجد أحيانا أن تفكيرنا الدينى متخلف بدرجة لافتة، بل إنه حتى بدائى. يماثل إلهنا الحديث من نواحٍ عديدة «الإله الأعظم» الذى اعتقد فيه أسلافنا فى الأزمان الغائرة فى القدم. هؤلاء الذين تم التخلى، بالإجماع عن لاهوتهم، أو أعيد تأويله بأسلوب جذرى نظرا لعدم مواءمته أو جدارته. علم أناس كثيرون فى العالم ما قبل الحداثى كم هو من الصعب الحديث عن الله.

وفى واقع الأمر، فإن اللاهوت مبحث إطنابى. ظل الناس يملأون آلاف الصفحات كتابة عن الله، ويتحدثون عنه دونما توقف. لكن بعض كبار فقهاء الدين اليهود والمسيحيين والمسلمين يقولون إن مبادئنا الدينية هى من صنع البشر ومن ثم فلابد أن تكون منقوصة، هذا على الرغم من أهمية صياغة

أفكارنا عن المقدس في كلمات. أتوا بتدريبات روحية هدفت عمدا إلى تقويض أنماط التفكير والحديث المعتادة كي يساعدوا المؤمنين على إدراك أن الألفاظ التي نستخدمها لوصف شئوننا الدنيوية ليست مناسبة للحديث عن الذات الإلهية. فليس «هو» خيّر، مقدس، قوي أو ذكي بأي أسلوب يمكننا أن ندركه. بل إنهم ذهبوا إلى أننا حتى لا نستطيع القول إن الله «موجود» بالأسلوب الذي نتخيله لأن مفهومنا عن الوجود مفرط القصور. فضّل بعض الحكماء القول بأن الله «لا شيء» نعرفه لأنه ليس كائناً آخر. وبالتأكيد، فلا يجوز أن تقرأ الكتب المقدسة حرفياً وكأنما هي تشير إلى وقائع معينة. من ثم، فإن أفكارنا الحديثة عن الله، كان لابد وأن تبدو وثنية في نظر هؤلاء الفقهاء.

لم يتبع خط التفكير هذا قلة من اللاهوتيين (الفقهاء) الراديكاليين فقط. فقد كان التفكير الرمزي أقرب إلى طبيعة الناس في العصور ما قبل الحداثية مما هو عليه الآن. مثلاً في أوروبا عصر الأوسطية كان الناس يتعلمون أن ينظروا إلى القُدّاس بصفته إعادة تمثيل رمزي لحياة المسيح وموته وبعثه. أضافت حقيقة أنه لم يكن باستطاعة جمهور المصلين فهم اللغة اللاتينية التي كان يقام بها القداس إلى روحانيته. كان الكاهن يتلو الجزء الأكبر من القداس بصوت خفيض، وكان الصمت الوقور، والدراما الطقوسية، وما يرافقها من موسيقى وإيماءات تتبع أسلوبا محددا، كان هذا كله ينقل جمهور المصلين إلى «فضاء» عقلي وجداني منفصل عن الحياة العادية. أما اليوم، فإن نسخ الإنجيل أو القرآن متاحة لجميع من بإمكانهم القراءة، لكن كانت علاقة الناس في الماضي بكتبهم المقدسة جد مختلفة. كانوا ينصتون إليها، تُتلى جزءا جزءا وأحيانا كثيرة بلغة أجنبية ودائماً في سياق طقوسي مكثّف. كان الوعاظ يحثونهم على عدم فهم تلك النصوص بأسلوب حرفي محض، ويقترحون تأويلات مجازية. كان عصر الأوسطيين، وهم يقدمون مسرحيات

«الأسرار المقدسة» التى كانت تعرض سنويا فى عيد القربان، يشعرون بحرية إدخال تغييرات على القصص الإنجيلية ويبتدعون شخصيات جديدة وينقلونها إلى مشهد معاصر. لم تكن تلك القصص تاريخية بالمعنى الذى نفهمه، لأنها كانت أكثر من مجرد تاريخ.

فى غالبية الثقافات قبل الحداثية، كان ثمة أسلوبان معترف بهما للتفكير، وللحديث واكتساب المعرفة. أطلق عليهما الإغريق التفكير الأسطورى «Mythos» والعقلانى «Logos». وكان كل منهما ضروريا ولم يكن يُنظر لأيهما على أنه أسمى من الآخر، ولم يكونا متضادين بل مكملَيْن لبعضهما. كان لكل منهما مجال كفاءته. وكان يُعتقد أنه من غير الحكمة مزجهما. كان التفكير العقلانى هو الأسلوب الذى به يستطيع الناس ممارسة العمل بكفاءة وفاعلية فى الحياة. من ثم كان عليه أن يتوافق بدقة مع الواقع الخارجى. كان الناس دائما بحاجة إلى التفكير العقلانى لصناعة الأسلحة الفاعلة، لتنظيم مجتمعاتهم، للتخطيط لرحلة أو لحملة عسكرية. كان التفكير العقلانى يَنْظر قدما، دائم البحث عن أساليب جديدة للتحكم فى البيئة، أو لاختراع شىء جديد، أو تحسين الأفكار القديمة. كان التفكير العقلانى ضرورة لبقاء نوعنا، بيد أنه كان له أوجه قصوره: لم يكن باستطاعته تلطيف الأحزان البشرية أو العثور على معنى نهائى لمعارك الحياة، كان على الناس الالتجاء للأسطورة لتوفر لهم هذا.

أما اليوم، فنحن نحيا فى مجتمع التفكير العقلانى العلمى، مجتمع فقدت فيه الأسطورة مصداقيتها وسمعتها الطيبة. فى لغة العامة تعنى «الأسطورة» شيئاً غير حقيقى. لكن الأسطورة لم تكن فى الماضى إغراقا فى الخيال. الأحرى أنها، ومثل التفكير العقلانى، كانت تساعد الناس على العيش الفاعل فى عالمنا المريك، لكن بأسلوب مختلف. ورغم أن الأساطير تروِى قصصاً عن

الآلهة، إلا أنها كانت فى واقع الأمر تركز على أوجه المأزق البشرى الأكثر مراوغة، إرباكا ومأساوية، الأوجه التى تخرج عن نطاق إحالات التفكير العقلانى. تسمّى الأسطورة أحيانا شكلاً بدائياً من علم النفس. حينما تصف أسطورة ما أبطالاً يتلمسون طريقهم خلال المتاهات، وينزلون إلى العالم السفلى، أو يحاربون، أو يصارعون مسوخاً ووحوشاً، كان الجمهور يفهمها على أنها ليست قصصاً واقعية بشكل أساسى. كان المقصود بها مساعدة الناس على محاولة تفحص المناطق الغامضة من النفس البشرية التى ليست فى متناول إدراكنا رغم أنها تؤثر بعمق على أفكارنا وسلوكنا. كان على الناس اقتحام مناطق عقولهم وأنفسهم المكتظة ومحاربة شياطينهم الشخصية. حينما بدأ فرويد ويونج تخطيط بحثهم العلمى للروح، التجآ تلقائياً إلى تلك الأساطير الموغلة فى القدم. لم يكن يُقصد بتلك الأساطير أبدا أن تكون سردا دقيقاً لحادث تاريخى؛ بل كانت شيئا حدث بمعنى ما ذات مرة، ولكنه أيضاً يحدث طوال الوقت.

لكن لم يكن للأسطورة أن تكون فاعلة إذا اكتفى الناس بـ «الإيمان» بها. لقد كانت، جوهريا، برنامجا للعمل. كان بإمكانها مساعدتك على التموضع فى الحالة الروحية أو النفسية السليمة فيما يناط بك أنت اتخاذ الخطوة التالية من أجل جعل «حقيقة» الأسطورة واقعا معيشا فى حياتك. فالأسلوب الوحيد لتقييم قيمة أية أسطورة أو حقيقتها هو العمل وفق ما تمليه. مثلا، علّمت أسطورة البطل، التى تتخذ نفس الشكل فى جميع الموروثات الثقافية تقريبا، – علمت الناس تحرير إمكانياتهم البطولية من عُقالها. وفيما بعد، رُويت قصص الشخصيات التاريخية مثل شخصية بودا أو عيسى أو محمد، بحيث تتطابق مع هذا النموذج المعيارى وبحيث يتمكن أتباعهم من محاكاتهم بنفس

الأسلوب. كان بإمكان الأسطورة حينما تمارس كمنهج للحياة أن تخبرنا بحقائق جد عميقة عن حالتنا البشرية. أوضحت لنا كيف نحيا بأسلوب أكثر ثراء وزخما، كيف نتعاطى مع حياتنا الفانية، وكيف نَثْبُتُ مبدعين فى وجه المعاناة التى هى إرث البشرية. لكن إذا لم نطبقها على وضعنا، ستظل الأسطورة شيئاً مجرداً غير مصدّق. منذ فجر التاريخ أعاد الناس تمثيل أساطيرهم من خلال طقوس مؤسلبة ذات تأثير جمالى على المشاركين فيها، تماما كالأعمال الفنية، وكانت تدخلهم إلى بعد أعمق من الوجود. من ثم، كانت الأساطير والطقوس متلازمة لا يمكن فصلها عن بعضها ولدرجة أن أصبح أحد موضوعات الجدل البحثى هو أيهما كان الأسبق: القصة الأسطورة أم الطقوس المرافقة لها. بدون الطقوس لم يكن ليتأتى أن تكتسب الأساطير معنى، ولظلت مبهمة مثل نوتة موسيقية لا يمكن لغالبيتنا استيعابها إلا إذا عُزِفت على الآلات.

وبالمثل، فلم يكن الدين وبشكل مبدئى، شيئا اتخذه الناس موضوعا للفكر بل كان شيئا يمارسونه. كان يكتسب حقيقته من خلال الممارسة العملية. ليس من المجدى أن تتخيل أنه سيكون باستطاعتك قيادة السيارة إذا اكتفيت بقراءة كتاب إرشادى أو درست قواعد المرور. ليس بالإمكان تعلم الرقص، أو الرسم، أو الطهو بمجرد قراءة نصوص أو وصفات. تبدو قواعد لعبة الشطرنج مثلا، غامضة ومعقدة ومملة حتى تبدأ فى ممارستها وتتبين منطق قواعدها. ثمة أشياء لا يمكن تعلمها سوى بالممارسة المتواصلة المكرّسة، لكنك إذا ثابرت ستجد أنك قد حققت شيئاً بدا مستحيلا فى البداية. وبدلا من أن تهبط إلى قاع البحيرة، تستطيع أن تطفو. بإمكانك تعلم القفز عالياً برشاقة أكثر مما يبدو وأنه باستطاعة البشر فعل ذلك، أو أن تغنى بجمال ملائكى. لا نفهم دوما كيف ننجز تلك الانتصارات، لأن عقلنا ووجداننا يرشد جسدنا

بأسلوب يتخطى أى تروٍّ واع منطقى. لكن، تظل هناك حقيقة أن بإمكاننا أن نتعلم كيف نسمو على قدراتنا البدئية ونتفوق عليها. تأتى بعض هذه الممارسات ببهجة لا يمكن وصفها. يمكن لموسيقار أن يفقد ذاته فى موسيقاه، أو لراقصة أن تتوحد مع رقصتها بحيث لا يمكن الفصل بينهما، أو لمتزلجة على الجليد أن تشعر بالانسجام مع نفسها ومع العالم الخارجى فيما تسرع منزلقة أسفل المنحدر. إنه إرضاء نحسه فى أعماقنا بأقوى من مجرد «الشعور الطيب». إنه ما أسماه الإغريق «النشوة الروحية ekstasis»، الخطو خارج نطاق ما هو معتاد ومعيارى.

الدين هو مبحث عملى يعلمنا أن نكتشف قدرات جديدة للعقل والقلب. وسيكون هذا إحدى تيمات هذا الكتاب الرئيسية. ليس من المجدى التفكير مليًا فى تعاليم الدين كى نصل إلى حكم عن صدقها أو زيفها قبل أن نباشر أسلوب حياة متدين. ستكتشف صدق هذه المبادئ – أو زيفها – فقط إن أنت ترجمتها إلى طقس، أو فعل أخلاقى. ومثل أية مهارة أخرى، يتطلب الدين المثابرة، العمل الدءوب والانضباط. سيبز البعض غيرهم، وسيكون البعض غير كفء بدرجة مهولة وسيخطئ آخرون الهدف كلية. أما هؤلاء الذين لا يحاولون فسيراوحون أماكنهم. يجد المتدينون من الصعب شرح كيفية عمل الطقوس والممارسات وأثرها، تماما مثلما قد لا تدرك إحدى المتزلجات بوعى كامل القوانين الفيزيائية التى تمكنها من الارتفاع فوق الجليد لدى خطوها على الأنصال الرقيقة.

نظر الداويون Daoists المبكرون إلى الدين بصفته «مهارة» خاصة تكتسب بالممارسة الدءوبة. أوضح زوانجزى zhuangzi «من حوالى ٣٧٠–٣١١ ق م»، أحد أهم الشخصيات فى تاريخ الصين الروحانى، أنه من غير المجدى أن نحاول تحليل التعاليم الدينية منطقيا. يستشهد بنجار يسمى بيان

الذى يقول: «حينما أعمل على تصنيع عجلة، فإن الطرْق عليها برقة بالغة، وعلى الرغم من لطفه، لا يؤدى إلى صنع عجلة جيدة. كما أن الطرق بالغ العنف سرعان ما يؤدى إلى إرهاقى وعدم نجاح جهدى! من ثم، لا رقة بالغة أو عنفاً مفرطاً. أمسكها بيدى وأبقيها فى قلبى. لا أستطيع التعبير عن هذا بالألفاظ الشفاهية. أنا فقط أعرفه». أو كذاك الأحدب الذى كان يصطاد حشرات زيز الحصاد الطائرة الشفافة باستخدام عامود لزج ولم تفته واحدة منها. كان قد وصل بقوى تركيزه إلى حد الكمال لدرجة فقدانه ذاته فى مهمته، وبدت يداه وأنهما تتحركان ذاتياً. ليس لديه أية فكرة كيف فعلها، كان يعرف فقط أنه قد اكتسب تلك المهارة بعد أشهر من الممارسة. ثم أُوضح زوانجزى أن نسيان الذات هذا هو حالة انتشاء روحى ekastasis (فناء الذات الصوفى) التى تمكنك من الخطو خارج جدران الذات الضيقة لتخبر المقدس.

اكتشف من اكتسبوا هذه المهارة وهذا النزوع بُعدا متساميا للحياة ليس هو الحقيقة الخارجية فقط لكنه متطابق مع عمق أعماق كينونتهم. ظلت تلك الحقيقة التى أسموها الله، داو، براهما، أو النيرفانا واقعا للحياة البشرية. لكن كان من المستحيل شرحها بأسلوب عقلانى.

وخلافا لما قد يعتقده المحدثون، لم تكن عدم الدقة هذه محبطة، لكنها أتت معها بحالة النشوة الروحية التى كانت تسمو بالممارسين إلى خارج الحدود المُقيدة للذات. تسعى معارفنا ذات التوجه العلمى إلى السيطرة على الحياة الواقعية، تفسيرها وإلى جعلها تحت هيمنة العقل، لكن أيضاً ظلت بهجة ما لا سبيل إلى معرفته جزءاً من التجربة البشرية حتى أن الشعراء والفلاسفة وعلماء الرياضة والعلماء، حتى فى يومنا هذا يجدون التمعن فى الظواهر التى تستعصى على الحل مصدرا للفرح، للدهشة، والإرضاء.

إحدى خاصيات العقل البشرى هى قدرته على امتلاك أفكار وخبرات تفوق إدراكنا المفاهيمى. فدائما ما ندفع بأفكارنا وخبراتنا إلى أبعاد قصوى بدرجة تنجرف معها عقولنا، وبأسلوب طبيعى، إلى إدراك للمتسامى وحس به. ظلت الموسيقى مرتبطة بالتعبير الدينى بأسلوب لا ينفصم عراه، وذلك لأن الموسيقى، مثل التجربة الدينية فى أفضل أحوالها، تُعيّن «حدود العقل». ولأن كل مجال معرفى يُعرّف بحدوده القصوى، فمن المنطقى أن تكون الموسيقى «تعريفياً» عقلانية. وهى أيضا أكثر الفنون ارتباطا بالجسد والأشياء المادية. يُصدرها التنفس، الأصوات، شعر الخيل، القواقع، الأحشاء، وتجد لها «ترددات فى أجسادنا تصل إلى مستوى أكثر عمقا من الإرادة أو الوعى». لكنها أيضا نشاط عقلى عالى الدرجة ويتطلب توازن طاقات متشابكة معقدة، وتكوين علاقات، كما أنها مرتبطة عن كثب بالرياضيات. لكن ذلك النشاط العقلانى الزخم له بعده المتسامى. تصل الموسيقى إلى خارج نطاق متناول الألفاظ: فهى ليست عن أى شىء. مثلا، لا تمثل رباعيات بيتهوفن المتأخرة الحزن، لكنها تستثيره فى المستمع والعازف معا، بيد أنها من المؤكد ليست تجربة حزينة. لدى الاستماع إليها، يبدو أننا نخبر الحزن مباشرة بأسلوب يتسامى على الذات، فهو ليس حزنى أنا، بل هو الحزن ذاته. من ثم، يصبح الذاتى والموضوعى شيئا واحدا فى الموسيقى. لِلُّغة حدود لا نستطيع تجاوزها. حينما ننصت بأسلوب ناقد إلى محاولاتنا المتعثرة للتعبير عن أنفسنا، نصل إلى وعى بـ «الآخرية» التى يستحيل التعبير عنها. يقول چورچ شتاينر الناقد البريطانى موضحا «من المؤكد أن حقيقة أن للّغة حدودا هو الذى يمنحنا البرهان على وجود حضور متسام فى نسيج العالم. وتحديدا بسبب عدم استطاعتنا الذهاب أبعد، لأن الكلام يخذلنا بأعجوبة، فإننا نخبر يقين وجود معنى مقدس يتجاوز معنانا ويحتويه. والموسيقى تواجهنا كل يوم

بأسلوب للمعرفة يتحدى التحليل المنطقى والبرهان الإمبريقى. إنها «زاخرة بالمعانى التى لا تقبل الترجمة إلى بنى منطقية، أو تعبيرات شفاهية». من ثم، تطمح الفنون جميعها إلى الوصول إلى حال الموسيقى، وهكذا تفعل التجربة الدينية فى أفضل أحوالها.

سيجد المتشككون المحدثون من المستحيل قبول استنتاج شتاينر أن «ما يكمن خارج نطاق كلام البشر يُفصح ببلاغة عن وجود الله». بيد أنه بالإمكان أن نعزو هذا إلى فكرتنا بالغة المحدودية عن الله. لم نعد نقوم بممارساتنا، وفقدنا نزوعنا إلى الدين ومهارتنا الدينية. بدأ الغربيون، أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، تلك الفترة التي يسميها المؤرخون العصر الحديث المبكر، فى تطوير نوع جديد تماما من الحضارة، حضارة تحكمها العقلانية العلمية وتقوم دعائمها اقتصادياً على التكنولوجيا واستثمار رءوس الأموال. حققت العقلانية نتائج مذهلة بدرجة فقدت معها الأسطورة مصداقيتها وساءت سمعتها. ساد الاعتقاد بأن النهج العلمى هو الوسيلة الوحيدة الموثوقة للوصول إلى الحقيقة. أدى هذا إلى جعل المعتقد الدينى التقليدى صعبا إن لم يكن مستحيلا. وفيما بدأ اللاهوتيون فى تبنى معايير العلم، مضوا يفسرون أساطير المسيحية على أنها وقائع يمكن البرهان على صحتها إمبريقياً، وعقلانيا وتاريخيا، وزجوا بها فى نطاق أسلوب تفكير غريب عنها. لم يعد بمقدور العلماء والفلاسفة فهم جدوى الطقوس أو معناها، وغدت المعرفة الدينية نظرية لا عملية. ضاع منا فن تأويل الحكايا القديمة عن الآلهة وهم يسيرون على الأرض، والموتى يبعثون من الأجداث، والبحار تُشقُّ بمعجزة. بدأ إدراكنا لمفاهيم مثل الإيمان، التنزيل، الأسرار، الأسطورة والدوغما يتبع أسلوبا كان بلا شك سيسبب الدهشة لأسلافنا. وتغير معنى لفظ «العقيدة» بخاصة، بحيث أصبح القبول الساذج بالتعاليم العقائدية متطلباً

سابقا للإيمان، بدرجة أن أصبحنا كثيرا ما نتحدث عن المتدينين بصفتهم «معتقدين believers» وكأنما القبول بالتعاليم التقليدية دونما مساءلة هو نشاطهم الأهم.

نتج عن التأويل المُعقلن للدين ظاهرتان حديثتان متمايزتان: الأصولية والإلحاد والاثنتان مترابطتان. تفجر الورع القتالى الذى يعرف بالأصولية فى جميع العقائد الأساسية تقريبا فى القرن العشرين، فسر الأصوليون المسيحيون، ورغبة منهم فى الإتيان بعقيدة كلية العقلانية والعلمية، تمحو الأسطورة لحساب الفكر المنطقى، فسروا الكتاب المقدس بأسلوب حرفى لا نظير له فى تاريخ الأديان. فى الولايات المتحدة، طوّر الأصوليون البروتستانت أيديولوجيا تعرف باسم «علم الخلق» تعتبر أساطير الإنجيل دقيقة علمياً. من ثم، ظلّوا يقومون بحملات لمنع تدريس نظرية التطور بالمدارس لأنها تتعارض مع قصة الخلق كما جاءت بسفر التكوين.

تاريخيا، لم يكن الإلحاد، سوى فيما ندر، إنكارا للمقدس بذاته، بل كان دائماً يمثل رفضاً لتصور بعينه للمقدس. كان المسيحيون والمسلمون، فى مرحلة مبكرة من تاريخهم، يُسمون «ملحدين» من قبل معاصريهم الوثنيين، لا لأنهم كانوا ينكرون وجود الله، بل لأن تصورهم للإله كان مختلفا بدرجة بدا معها وأنه نوع من المروق. من ثم، فالإلحاد يعتمد بأسلوب طفيلى على شكل الإيمان بالإله الذى يسعى إلى إنكاره، وبذا يصبح نسخته المغايرة أو مَقْلُوبة. طوّر فويرباخ، ماركس، نيتشه وفرويد الإلحاد الغربى الكلاسيكى فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. كانت أيديولوجياتهم، فى جوهرها، رد فعل على المدرك اللاهوتى للإله الذى تطور فى أوروبا والولايات المتحدة فى العصر الحديث، بل إن ذلك المدرك هو الذى أملى تلك الأيديولوجيات. أما الإلحاد المعاصر الذى يتبناه دوكينز وكريستوفر هيتشنز وسام هاريس فهو

مختلف لأنه يركز حصريا على الإله الذى طورته الأصوليات، حيث يعتمد ثلاثتهم على أن الأصولية تشكل جوهر الدين جميعه ولبه. وقد أدى هذا إلى إضعاف جدلهم النقدى، لأن الأصولية هى، فى واقع الأمر، شكل غير تقليدى للعقيدة لدرجة التحدى، وغالبا ما تسىء تمثيل الموروث الذى تحاول الدفاع عنه. لكن «الملحدين الجدد» يتمتعون بقاعدة واسعة من - القراء، ليس فقط فى أوربا العلمانية، بل أيضا فى الولايات المتحدة التى ظلت، تقليدياً، أكثر تدينا. توحى شعبية كتبهم أن ثمة الكثيرين ممن يشعرون بالحيرة والإرباك، بل وحتى الغضب من مفهوم الإله الذى ورثوه.

من المؤسف أن يعبر هوكينز، هيتشنز وهاريس عن أنفسهم بهذا الإفراط لأن بعض انتقاداتهم صحيحة. فقد ارتكب المتدينون بالفعل بشاعات وجرائم، كما أن «لاهوت» الأصوليين الذى يهاجمه الملحدون الجدد «غير بارع» كما قد يقول البوذيون. لكنهم يرفضون، عن مبدأ، الحوار مع رجال الدين ممن هم أكثر تمثيلا لموروثات التيار الرئيسى. من ثم، أتى تحليلهم ضحلا إلى درجة محبطة، لأنه مؤسس على لاهوت ضحل. وفى الواقع فإن الملحدين الجدد ليسوا على درجة كافية من الراديكالية، فقد أصر عدد من الفقهاء اليهود والمسيحيين والمسلمين على أن الله ليس موجودا بالمعنى المتداول، وأنه لا يوجد شىء فى الأعالى، ولم يكن هدفهم من هذه الأقوال الجازمة هو إنكار وجود الله بل الحفاظ على تساميه. بيد أنه فى مجتمعنا الثرثار، مفرط التشبث برأيه، فقد غفلنا عن هذا الموروث المهم الذى بإمكانه حل الكثير من مشاكلنا الدينية الراهنة.

لا أنوى بإطلاقه، الهجوم على أية معتقدات يعتنقها الأفراد بصدق. ترى الآلاف المؤلفة من الأشخاص أن رمزية الرب الحديثة تناسبهم تماما: فقد منحتهم، مدعومة بطقوس ملهمة، وتنظيم للعيش فى مجتمع نابض حى، حساً

بمعنى متسامٍ. تصر جميع العقائد أنه يجب التعبير عن الروحانية الحقة باتساق، فى التعاطف العملى، والقدرة على الشعور مع الآخر. وإذا كانت الفكرة التقليدية عن الله تلهم التماهى مع الآخرين واحترامهم، فهى بذلك تؤدى وظيفتها. لكن الإله الحديث هو واحد فقط من المعتقدات الدينية التى تطورت خلال تاريخ الديانات التوحيدية الذى يقدر بثلاثة آلاف عام. ولأن «الله» مطلقٌ لا نهائى، فليس باستطاعة أحد أن تكون له الكلمة الفصل. أجد أنه من دواعى القلق أن يشعر الكثيرون بالتشوش والحيرة حول طبيعة الحقيقة الدينية، ويفاقم هذا الحس الطبيعة الجدلية الخلافية لمعظم النقاش الدينى فى الوقت الحالى. أهدف، فى كتابى هذا، إلى الإتيان بشىء جديد إلى الطاولة.

بإمكانى فهم الضيق والتوتر الذى يشعر به الملحدون الجدد من أمثال دوكينز، لأنه، وكما أوضحت فى مذكراتى «السلم اللولبى The Spiral Staircase» فقد ظللتُ لسنوات عديدة لا أريد أن تكون لى أية علاقة بالدين، ومن المؤكد أن بعضاً من كتبى الأولى بها اتجاهات «دوكينسية» لكن دراستى لأديان العالم على مدى العشرين عاما الأخيرة أجبرتنى على مراجعة آرائى المبكرة. فتحت تلك المراجعة عينى على أوجه دينية يمارسها معتنقو الأديان الأخرى مما أدى إلى تعديل عقيدة طفولتى الضيقة الدوغماتية. هذا بالإضافة إلى أن التقييم الدقيق الواعى للأدلة جعل نظرتى للمسيحية ذاتها تتغير. أحد الأشياء التى تعلمتها هى أن الشجار حول الدين مُضرٌ، وغير مجدٍ ولا يؤدى إلى الاستنارة. فهو لا يجعل فقط التجربة الدينية الحقة مستحيلة، بل إنه ينتهك الموروث السقراطى العقلانى أيضاً.

حاولت، فى الجزء الأول من هذا الكتاب، أن أوضح كيف كان الناس يفكرون عن الرب فى العالم ما قبل الحديث، بأسلوب آمل أن يلقى الضوء على

بعض القضايا التى يجدها الناس الآن إشكالية: الكتب المقدسة، الإلهام، الخلق، المعجزات، التنزيل، الإيمان، العقيدة، والأسرار المقدسة، ويوضح أيضا كيف يضل الدين طريقه. أما فى الجزء الثانى، فأتتبع صعود «الإله الحديث» الذى قلب الكثير من المسلمات الدينية التقليدية رأساً على عقب. لا يمكن بالطبع، أن تكون هذه دراسة مستفيضة. لقد ركزتُ على المسيحية لأنها أكثر الموروثات التى تأثرت بصعود الحداثة العلمية كما أنها تحمّلت أيضا وطأة الهجمة الإلحادية الجديدة. هذا علاوة على أننى، ركزت، من خلال الموروث المسيحى، على تيمات وموروثات تتعاطى مباشرة مع مشاكلنا الدينية الراهنة وتتعلق بها. الدين معقد، وتوجد فى جميع العصور سلالات وأنواع عديدة من التدين والورع، ولا يحدث أبدا أن يسيطر توجه واحد بكلية. يمارس الناس عقائدهم بأساليب عديدة منوعة، مختلفة، بل ومتناقضة. لكن ظل التكتم المتعمد والمبدئى والتحفظ فى الحديث عن الله و/أو المقدس تيمة ثابتة ليس فقط فى المسيحية بل أيضا فى جل العقائد الكبرى حتى مقدم الحداثة بالغرب. اعتقد الناس أن الله يفوق أفكارنا ومفاهيمنا وأنه ليس بالإمكان معرفته سوى بالممارسة والتبتُّل. لقد أغفلنا تلك البصيرة المهمة، وأعتقد أن هذا أحد الأسباب فى أن كثيرا من الغربيين اليوم يجدون مفهوم «الله» على هذا القدر من الصعوبة. من ثم، فقد كرستُ اهتماماً خاصا بهذا المبحث الذى أهملناه بأمل إلقاء الضوء على مأزقنا الراهن. لكننى، بالطبع، لا يمكننى الزعم بأن هذا كان توجها شموليا، فقط أنه كان عنصرا مهما فى ممارسة المسيحية، وأيضا عدد من العقائد التوحيدية وغير التوحيدية الأخرى لذا وجب الاهتمام به.

بيد أنه وعلى الرغم من أن الكثيرين اليوم لا أدريون بشأن العقيدة، فإن العالم يشهد فى الوقت الراهن إحياء دينيا. وعلى النقيض من التنبوءات

العلمانية فى منتصف القرن العشرين، فلن يختفى الدين. بيد أنه إذا خضع للتوجهات العنيفة المتعصبة التى ظلت دائما جزءا لا يتجزأ من الروح العلمية الحديثة، فإن هذا الإحياء الجديد سيكون «غير بارع». نرى اليوم الكثير من الدوغما الطنانة، الدينية والعلمانية، لكن أيضا، فإنه ثمة تقدير متنامٍ لقيمة «عدم الإلمام» «ما لا سبيل إلى معرفته». لا نستطيع أبدا إعادة خلق الماضى، لكن بإمكاننا التعلم من أخطائه واستبصاراته. ثمة موروث دينى طويل يؤكد على معرفة حدود معرفتنا، أهمية الصمت، والتكتم والرهبة. وهذا ما آمل أن أتفحصه فى هذا الكتاب. ظل أحد شروط التنوير هو استعدادنا للتخلى عما اعتقدنا أننا نعرفه وذلك كى نقدر الحقائق التى لم نحلم بها أبدا. ربما يكون علينا أن نتخلص من كثير مما تعلمناه عن الدين و ننساه قبل أن نستطيع التقدم باتجاه بصيرة جديدة. ليس من السهل أن نتحدث عن الله، وغالبا ما يبدأ المسعى الدينى بإفناء إرادى لأنماط التفكير العادية. وربما كان هذا ما كان بعض أوائل أسلافنا يحاولون إبداعه فى معابدهم تحت الأرضية غير العادية.